صباح مرّ

• محمود سعيد*

ـ كوكو.. كو.. كوكو.. كو

استيقظتْ على صوت الديك. ضحكتْ. نظرتْ إلى الشبّاك. نادتْه. لم يستجبْ. كانت تَرْقد على حشيّة على الأرض، تَبْعد عن الشبّاك نحو متر. وكان هناك غصنُ رمّانة، بوروده الحمر الناريّة، يتلاعب مع النسيم في جزء من فضاء الشبّاك، يدْخل ذؤابات أغصانه بين قضبان الشبّاك الحديديّة لحظةً كأنّه يَلْعب معها، وينسحب. جاء صوتُ الديك مرّةً أخرى. أضحكها. كركرتْ. صوتٌ صافٍ آسر. نادَتْه من جديد، لكنّه أهملها مرّةً أخرى. توقّف بلبل على الستارة، غرّدَ لحظةً وهو يهزّ ذيله، فضحكتْ من جديد. نادَتْه، مدّت يدها نحوه، لكنّ البلبل لم يرها. أَوْقفه الصوتُ، أدار جانبه. حدّق بعينيْه المدوّرتيْن الجميلتيْن ناحيةَ الصوت: كان هناك مشبك سلكيّ يصدّ الرؤية لمن في الخارج ويتيحها واضحةً لمن في الداخل. وإذ اطمأنّ أنْ لا أحد يهدِّده أَطْلق دفقةَ ألحان أخرى. نادَتْه ثانيةً، حرّكتْ يديْها تَسْتدعيه. لكنّه إذ سمع تغريدَ صديقته على شجرة بعيدة في حديقة الجيران أجابها بدفقة ألحان رشيقة قبل أن يطير إليها.

توقّف شخيرُ أبيها: شهيق طويل أشبه بالحشرجة، ثم زفير قصير جداً. كانت تميّزه عن شخير أمّها وزفيرها المتقطّع الذي يُشْبه دقّة صغيرة على منضدة خشبيّة، وعن تنفُّس أخيها الهادئ نائمًا. لكنّ عينيْها لم تفارقا الشبّاك. كانت تَسْمع تغريدَ البلبل وصديقته من فوق الشجرة البعيدة وتتفاعل معهما. وعلى الرُّغم من أنّهما لم يردّا على ندائها المتكرّر فإنّها واثقة أنّهما سيحطّان على الستارة. التفتتْ ناحيةَ الغرفة عندما سمعتْ أمَّها تكلّم أباها.

ـ نَمْ! لِمَ تبكّر؟ سنَلْحَقُ على العذاب.

ـ يجب أن أستعدّ.

ـ مازال هناك وقت.

ـ ما إنْ أفتح عينيّ حتى يَهْرب النوم.

أراد أن يَنْهض. أمسكتْ يدَه تبقيه، فجاءت ضحكتُها قهقهةً قصيرةً أشبهَ بلازمة موسيقيّة لذيذة مصحوبةٍ بشحنة مغناطيس كبرى جعلت الأبَ يصبح قربها. قهقهتْ بسعادة تفيض على الكون. صفّقتْ بكفّيها الصغيرتيْن، ثم مدّت يديْها وكأنّها تريد أن تعانقه، تريد أن تطير. تضحك: سنان علويّتان صغيرتان وحيدتان تَلْمعان كلؤلؤتيْن في لثة ورديّة. عيْنان واسعتان، قزحيّتان سوداوان وسط بياضٍ كالحليب. أحسّت بأنفاسه قرب وجهها فحبستْ نفسَها، نفختْ خدَّيْها، جعلتهما كُرتيْن صغيرتيْن، أوقفتْ زفيرها لحظةً فاحمرّ خدّاها وجبهتها، ثم أَطلقت الهواءَ، فتطاير رذاذُ اللعاب من فمها كالرشاش على وجهه. ضحكتْ من جديد متمتّعةً بانتصارها. ضحك من كلّ قلبه: «ملعونة.. ماذا فعلتِ؟»

وهي تحدِّق به رفعتْ فخذهَا الممتلئةَ العارية، أَمسكتْ قدمَها بيديْها الاثْنتيْن، ثم قرّبت القدمَ إلى فمها. مصّت إبهامَها لحظةً ثم أَبْعدتها. نظرتْ إليه بتحدٍّ. هتفتْ: «ببب.. بي. ببب...» ثم أعادت الإبهامَ، التي بدتْ أشبهَ ببندقة قانية، إلى فمها.

دفعتْه زوجتُه. قالت معبِّسةً: «لماذا مِنْ صباح اللّه تَدْفعنا إلى العذاب؟ يا إلهي! لماذا لا تَدَعُنا ننسى؟ في الأقلّ ونحن نيام لا نفكّر! تقدَّمْ. دَعْني أنظِّفْها!»

---

* ـ روائيّ وقصّاص عراقيّ. يعيش اليوم في الولايات المتحدة الأميركيّة.

ـ لا تعبسي بوجهها. إنّها تَفهم كلّ شيء. لا تُقْحميها بالمصائب.

لحظةً ووجدتْ أمَّها تَنْحني فوقها، وخصلاتُ شعرها تتدلّى حول وجهها في جميع الجهات. التهبت الحماسةُ في عينيْها. أَطلقتْ قدمَها. خطفتْ خصلةً من شعر أمّها، سحبَتْها بقوّة ترد أن تضعها في فمها. أخذتْ أمُّها تَضْحك، وهي تفكّ الخرَقَ من حول فخذيْها. نظرتْ إلى زوجها وقالت:

ـ أنظرْ. لم تبلِّلْ نفسَها في الليل. هذا هو اليوم الثالث. لا أصدِّق عينيَّ!

ـ لا تحسديها.

ـ سبعة أشهر فقط.

وضعتْها على «القعدة.» أخذتْ تضربَ الأرضَ بقدميْها. عندها جاءت أمُّها بكوب الحليب. قالت وهي تكاد تبكي:

ـ هذه آخر ملعقة حليب.

ـ قلتُ لكِ ابتسمي عندما تتكلّمين أمامها. إنّها تَفْهم كلّ شيء.

ـ ...

ـ متى تدركين أنّ الأطفال يَفْهمون كلّ شيء؟

ـ ماذا أُدرك؟ سبعة أشهر فقط وتَفْهم كلَّ شيء؟ أليس هذا بجنون؟

تغيّرتْ عينا الطفلة. شيء ما كَمَدَ إشعاعَ السعادة في عينيْها، فاقتربَ منها مبتسمًا. نَفَخَ في وجهها. رجعتْ إلى الوراء. ضحكتْ. ضحك. أخذتْ كوبَ الحليب من أمّها، لفّت أصابعَها الدقيقة حوله. كان يضع راحتَه تحت الكوب من دون أن يلامسه كي لا يسقط. رَشَفَتْ رشفةً واحدة. رفعتْ رأسَها. كانت شفتُها العليا ملطّخةً بالحليب. حدّقتْ به بتحدٍّ، كأنّها تقول له: «أنظرْ ماذا أستطيع أن أفعل.»

قهقه وهو يقبِّل يدَها: «أنت بطلة.. تشربين من دون رضاعة.. بطلة.»

ابتسمتْ بينما جلستْ أمُّها على الأرض فوق حشايا المنام، ورأسُها بين يديْها، وهي تكاد تبكي. وخمّن أنّها ماتزال تفكّر بحليب الطفلة، بطعام أخيها ذي السنوات الثلاث، بطعامهما، بالمستقبل المظلم الذي يَنْتظرهم.

ـ سأُعد لَكَ الشاي.

ـ لن آكل. قال الطبيب يجب أن أبقى على الريق.

التفتتْ إليه:

ـ لن تبيعها.

عبس بغضب:

ـ ماذا؟ أنحن أطفال؟ أعطيتُهم كلمتي.

ـ لن تبيعها.

ـ لكنّكِ البارحةَ وافقتِ.

اقتربتْ منه. جلستْ على المنام قرب الطفلة: «فكّرتُ طول الليل. بعد أن نمْتَ ظللتُ أبكي حتى الرابعة. كم كلْيةً عندك؟ اثنتان فقط ! أنت الآن شابٌّ. مَنْ يَدْري بعد أربع، خمس، عشر سنوات، ماذا يَحْدث لإحدى كليتيْك؟ ماذا تَفْعل عندها؟ ستموت. معظمُ الناس عندهم أمراضُ كلْيةٍ، وتضحّي بنفسك؟ ثم ما قيمةُ الكلْية؟ كم ستأخذ؟ كم شهرًا ستبقى الفلوسُ عندنا؟ حسبتُها البارحة، لن تكفينا أكثرَ من أربعة أشهر وبعدها ماذا ستبيع؟ عيونَكَ؟ لن نبيع شيئًا أبدًا. ألا يَكْفي أنّنا بِعْنا الثلاّجة، التلفزيون، السجّاد، الأسرّة، المكيّفات؟ ألا يَكفي أنّنا ننام على الأرض؟»

ـ أنموّت أولادَنا من الجوع؟

ـ سأعطي رجاء لأمّ علي.

هتف مستنكرًا:

ـ نبيع طفلتنا؟

ـ لا، ليس بيعًا. اتّفقتُ معها. مستعدّةٌ وزوجها أن يوقّعا وثائق رسميّة بموجبها نستردّ ابنتَنا متى شئنا، متى تَنْفرج الأمور. قالت لي انْ ليس عندها مانع حتى لو انتقلنا كلّنا عندها إلى بيتها. لقد فرغ البيتُ الواسعُ، بعد أن هَرَبَ وهاجر أولادُها الأربعة إلى الخارج. طابقان. الطابق العلويّ فارغ. أربع غرف خالية. يريدون بعض الحياة في البيت.

ـ لن أبيع طفلتي.

ـ إذن، اخترْ بيني وبين بيع كلْيتكَ. إنْ ذهبتَ اليومَ إلى المستشفى فلن تراني حتى الموت.

شيكاغو